بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ ۞ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾ إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾ ﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: ﴿لا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ وتمّ الكلام. ثم قال جل وعز: ﴿إِلاَّ مَن ظُلِمَ﴾ استثناء ليس من الأوّل في موضع نصب؛ أي لكن من ظلم فله أن يقول ظلمني فلان. ويجوز أن يكون في موضع رفع ويكون التقدير: لا يحب الله أن يجهر أحد بالسوء إلا من ظلم. وقراءة الجمهور ﴿ظُلِمَ﴾ بضم الظاء وكسر اللام؛ ويجوز إسكانها. ومن قرأ «ظَلَم» بفتح الظاء وفتح اللام وهو زيد بن أسلم وابن أبي إسحاق وغيرهما على ما يأتي، فلا يجوز له أن يسكّن اللام لخفة الفتحة. فعلى القراءة الأُولى قالت طائفة: المعنى لا يحب الله أن يجهر أحد بالسوء من القول إلا من ظُلم فلا يُكره له الجهر به. ثم اختلفوا في كيفية الجهر بالسوء وما هو المباح من ذلك؛ فقال الحسن: هو الرجل يظلم الرجل فلا يدع عليه، ولكن ليقل: اللهم أعنّي عليه، اللهم استخرج حقي، اللهم حُلْ بينه وبين ما يريد من ظلمي. فهذا دعاء في المدافعة وهي أقل منازل السوء. وقال ابن عباس وغيره: المباح لمن ظُلم أن يدعو على من ظلمه، وإن صبر فهو خير له؛ فهذا إطلاق في نوع الدعاء على الظالم. وقال أيضاً هو والسدي: لا بأس لمن ظُلم أن ينتصر ممن ظلمه بمثل ظلمه ويجهر له بالسوء من القول[1]. وقال ابن المستنير: ﴿إِلاَّ مَن ظُلِمَ﴾ معناه؛ إلا من أكره على أن يجهر بسوء من القول كفر أو نحوه فذلك مباح. والآية على هذا في الإكراه؛ وكذا قال قُطْرُب: ﴿إِلاَّ مَن ظُلِمَ﴾ يريد المكره؛ لأنه مظلوم فذلك موضوع عنه وإن كفر؛ قال: ويجوز أن يكون المعنى ﴿إِلاَّ مَن ظُلِمَ﴾ على البدل؛ كأنه قال: لا يحب الله إلا من ظلم، أي لا يحب الله الظالم؛ فكأنه يقول: يحب من ظلم أي يأجر من ظلم. والتقدير على هذا القول: لا يحب الله ذا الجهر بالسوء إلا من ظلم، على البدل. وقال مجاهد: نزلت في الضيافة فرخص له أن يقول فيه[2]. قال ابن جريج عن مجاهد: نزلت في رجل ضاف رجلاً بفلاة من الأرض فلم يضيفه فنزلت ﴿إِلاَّ مَن ظُلِمَ﴾ ورواه ابن أبي نجيح أيضاً عن مجاهد؛ قال: نزلت هذه الآية ﴿لا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَن ظُلِمَ﴾ في الرجل يمر بالرجل فلا يضيفه فرخص له أن يقول فيه: إنه لم يحسن ضيافته[3]. وقد استدل من أوجب الضيافة بهذه الآية؛ قالوا: لأن الظلم ممنوع منه فدل على وجوبها؛ وهو قول الليث بن سعد. والجمهور على أنها من مكارم

(١) مرسل: الطبري (٦/ ٥) في تفسيره.

(٢) مرسل: الواحدي ص (١٥٢) في أسباب النزول.

(٣) ضعيف: اجتمعت فيه علتان: إرسال مجاهد، والانقطاع بين ابن جريج ومجاهد، كما أن ابن جريج مدلس الطبري (٦/ ٥) في تفسيره.

الأخلاق وسيأتي بيانها في «هود» والذي يقتضيه ظاهر الآية أن للمظلوم أن ينتصر من ظالمه ولكن مع اقتصاد إن كان مؤمناً كما قال الحسن؛ فأما أن يقابل القذف بالقذف ونحوه فلا؛ وقد تقدّم في «البقرة». وإن كان كافراً فأرسل لسانك وادع بما شئت من الهلكة وبكل دعاء؛ كما فعل النبي ﷺ حيث قال: «اللهم اشدد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسني يوسف»(١) وقال: «اللهم عليك بفلان وفلان» (٢)سماهم. وإن كان مجاهراً بالظلم دعى عليه جهراً، ولم يكن له عِرض مُحترم ولا بَدَن مُحترم ولا مال محترم. وقد روى أبو داود: عن عائشة قالت: سرق لها فجعلت تدعو عليه؛ فقال رسول الله ﷺ: «لا تُسبِّخي عنه»(٣) أي لا تخفِّفي عنه العقوبة بدعائك عليه. وروي أيضاً عن عمرو بن الشَّريد عن أبيه عن رسول الله ﷺ قال: «ليّ الواجد ظلم يُحِل عِرضه وعقوبته»(٤). قال ابن المبارك: يحل عِرضه يغلظ له، وعقوبته يحبس له. وفي صحيح مسلم: «مطل الغنى ظلم»(٥). فالموسر المتمكن إذا طولب بالأداء ومطل ظلم، وذلك يبيح من عِرضه أن يقال فيه: فلان يمطل الناس ويحبس حقوقهم ويبيح للإمام أدبه وتعزيره حتى يرتدع عن ذلك؛ حكى معناه عن سفيان، وهو معنى قول ابن المبارك رضي الله عنهما.

الثانية: وليس من هذا الباب ما وقع في صحيح مسلم من قول العباس في عليّ رضي الله عنهما بحضرة عمر وعثمان والزبير وعبد الرحمن بن عوف: يا أمير المؤمنين اقض بيني وبين هذا الكاذب الآثم الغادر الخائن(٦). الحديث. ولم يردّ عليه واحد منهم؛ لأنها كانت حكومة، كل واحد منهما يعتقدها لنفسه، حتى أنفذ فيها عليهم عمر الواجب؛ قاله ابن العربي. وقال علماؤنا: هذا إنما يكون فيما إذا استوت المنازل أو تقاربت، وأما إذا تفاوتت، فلا تُمكّن الغوغاءُ من أن تستطيل على الفضلاء، وإنما تطلب حقها بمجرّد الدعوى من غير تصريح بظلم ولا غضب؛ وهذا صحيح وعليه تدل الآثار. ووجه آخر وهو أن هذا القول أخرجه من العباس الغضب وصولة سلطة العمومة فإن العمّ صِنْوُ الأب (٧)، ولا شك أن الأب إذا أطلق هذه الألفاظ على ولده إنما يحمل ذلك منه على أنه قصد الإغلاظ والرّدع مبالغة في تأديبه، لا أنه موصوف بتلك الأمور؛ ثم انضاف إلى هذا أنهم في محاجّة ولاية دينية؛ فكان العباس يعتقد أن مخالفته فيها لا تجوز، وأن مخالفته فيها تؤدّي إلى أن يتصف المخالف بتلك الأمور؛ فأطلقها ببوادر الغضب على هذه الأوجه؛ ولما علم الحاضرون ذلك لم ينكروا عليه؛ أشار إلى هذا المازَري والقاضي عياض وغيرهما.

الثالثة :فأمّا من قرأ «ظَلَمَ» بالفتح في الظاء واللام وهي قراءة زيد بن أسلم، وكان من العلماء

---

(١) **صحيح** : وقد سبق .

(٢) **متفق عليه** : البخاري (٥٢٠) في الصلاة ، ومسلم (١٧٩٤) في الجهاد عن ابن مسعود رضي الله عنه.

(٣) **ضعيف** : أبو داود (٤٩٠٩) في الأدب وضعفه الألباني هناك.

(٤) **حسن** : وقد سبق .

(٥) **متفق عليه** : البخاري (٢٢٨٧) في الحوالة، ومسلم (١٥٦٤) في المساقاة.

(٦) **متفق عليه** : البخاري (٣٠٩٤) في فرض الخمس، ومسلم (٧٥٧) في الجهاد.

(٧) صنو أبيه : الصنو هو طلوع النخلتين من عرق واحد وجمعه صنوان النهاية (٣/ ٥٧) لابن الأثير.

بالقرآن بالمدينة بعد محمد بن كعب القرظيّ، وقراءة ابن أبي إسحاق والضحاك وابن عباس وابن جبير وعطاء بن السائب فـالمعنى: إلا من ظلم في فعل أو قـول فاجهـروا له بالسوء من القـول؛ في معنى النهي عن فـعله والتـوبيخ له والردّ عليـه؛ المعنى لا يحب الله أن يقـال لمن تاب من النفـاق: ألستَ نافقتَ؟ إلا مِن ظَلَم، أي أقام على النفاق؛ ودل على هذا قوله تعالى: ﴿إلاَّ الَّذِينَ تَابُوا﴾ البقرة: ١٦٠] [النساء: ١٤٦ . قال ابن زيد: وذلك أنه سبحانه لما أخـبر عن المنافقين أنهم في الدّرك الأسفل من النار كان كذلك جهراً بسـوء من القول، ثم قال لهم بعد ذلك: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ﴾ [النساء: ١٤٧] على معنى التأنيس والاستدعاء إلى الشكر والإيمان. ثم قال للمؤمنين: ﴿لا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَن ظُلِمَ﴾ في إقـامتـه على النفاق؛ فـإنه يقال له: ألسـت المنافق الكافر الذي لك في الآخـرة الدرك الأسفـل من النار ؟ ونحو هذا من القـول. وقال قـوم: معنى الكلام: لا يحب الـله أن يجهـر أحد بالسوء من القول، ثم استثنى استثناء منقطعـاً؛ أي لكن من ظَلَم فإنه يجهر بالسوء ظلماً وعدواناً وهو ظالم في ذلك.

قلت: وهذا شأن كـثير من الظـلمة ودأبهم؛ فإنهم مع ظلمـهـم يستطيلون بألسنتـهـم وينالون من عِرض مظلومهم ما حرّم عليهم. وقال أبو إسحاق الزجاج: يجوز أن يكون المعنى ﴿إِلاَّ مَن ظُلِمَ﴾ فقال سوءا؛ فإنه ينبغي أن تأخذوا على يديه؛ ويكون الاستثناء ليس من الأول.

قلت: ويدل على هذا أحاديث منها قوله عليه السلام: «خذوا على أيدي سفهائكم»(١). وقوله: «انصـرْ أخاك ظالماً أو مظـلوماً» قـالوا: هذا ننصـره مظلومـاً فكيف ننصره ظـالماً ؟ قال: «تكفـه عن الظلم»(٢). وقال الفرّاء: ﴿إِلاَّ مَن ظُلِمَ﴾ يعني ولا من ظلم.

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ تحذير للظالم حتى لا يظلم، وللمظلـوم حتى لا يتعدّى الحدّ في الانتصـار. ثم أتبع هذا بقوله: ﴿إِن تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَن سُوءٍ﴾ فندب إلى العفو ورغّب فيـه. والعفو من صفـة الله تعالى مع القدرة على الانتقـام؛ وقد تقدّم في «آل عمـران» فضل العافين عن الناس. ففي هذه الألفاظ اليسـيرة معانٍ كثيرة لمن تأملها. وقيل: إن عـفوت فإن الله يعفو عنك. روى ابن المبارك قال: حدثني من سمع الحسن يقول: إذا جثت الأُمم بين يدي رب العالمين يوم القيامة نودي ليقم من أجره على الله فلا يقوم إلا من عفا في الدنيا؛ يصدّق هذا الحديث قوله تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾(٣).

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾﴾

---

(١) **ضعيف**: أورده السيوطي في الجامع الصغير (٣٨٩٤) عن النعمان بن بشير رضي الله عنه.

(٢) **صحيح**: سبق روايته عند البخاري في المظالم.

(٣) **ضعيف**: لجهالة فيه بين ابن المبارك والحسن.

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ﴾ لما ذكر المشركين والمنافقين ذكر الكفار من أهل الكتاب، اليهود والنصارى؛ إذ كفروا بمحمد ﷺ، وبيّن أن الكفر به كفر بالكل؛ لأنه ما من نبيّ إلا وقد أمر قومه بالإيمان بمحمد ﷺ وبجميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. ومعنى ﴿يُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ أي: بين الإيمان بالله ورسله؛ فنص سبحانه على أن التفريق بين الله ورسله كفر؛ وإنما كان كفراً لأنّ الله سبحانه فرض على الناس أن يعبدوه بما شرع لهم على ألسنة الرسل، فإذا جحدوا الرسل ردّوا عليهم شرائعهم ولم يقبلوها منهم، فكانوا ممتنعين من التزام العبودية التي أُمروا بالتزامها؛ فكان كجحد الصانع سبحانه، وجحد الصانع كفر لما فيه من ترك التزام الطاعة والعبودية. وكذلك التفريق بين رسله في الإيمان بهم كفر، وهي:

المسألة الثانية: قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾ وهم اليهود آمنوا بموسى وكفروا بعيسى ومحمد؛ وقد تقدّم هذا من قولهم في «البقرة». ويقولون لعوامّهم: لم نجد ذكر محمد في كتبنا. ﴿وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ أي يتخذوا بين الإيمان والجحد طريقاً، أي ديناً مبتدعاً بين الإسلام واليهودية، وقال: ﴿ذَٰلِكَ﴾ ولم يقل ذينك؛ لأن ذلك تقع للاثنين ولو كان ذينك لجاز.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾ تأكيد يزيل التوهم في إيمانهم حين وصفهم بأنهم يقولون نؤمن ببعض، وأن ذلك لا ينفعهم إذا كفروا برسوله؛ وإذا كفروا برسوله فقد كفروا به عز وجل، وكفروا بكل رسول مبشِّر بذلك الرسول؛ فلذلك صاروا الكافرين حقاً. و﴿لِلْكَافِرِينَ﴾ يقوم مقام المفعول الثاني لـ﴿أَعْتَدْنَا﴾؛ أي أعتدنا لجميع أصنافهم ﴿عَذَابًا مُّهِينًا﴾ أي: مُذلاً.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٥٢﴾﴾

يعني به النبيّ ﷺ وأُمّته.

﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَآتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾﴾

سألت اليهود محمداً ﷺ أن يصعد إلى السماء وهم يرونه فينزل عليهم كتاباً مكتوباً فيما يدّعيه على صدقه دفعة واحدة، كما أتى موسى بالتوراة؛ تعنتا له ﷺ؛ فأعلم الله عز وجل أن آباءهم قد عنتوا موسى عليه السلام بأكبر من هذا ﴿فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾ أي: عياناً؛ وقد تقدّم في «البقرة». و﴿جَهْرَةً﴾ نعت لمصدر محذوف أي: رؤية جهرة؛ فعوقبوا بالصاعقة لعظم ما جاؤوا به من السؤال والظلم من بعد ما رأوا من المعجزات.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ﴾ في الكلام حذف تقديره: فأحييناهم فلم يبرحوا فاتخذوا

العجل؛ وقد تقدّم في «البـقرة» ويأتي ذكره في «طه» إن شاء اللـه. ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ أي: البراهين والدّلالات والمعجزات الظاهرات مـن اليد والعصا وفَلْق البحر وغيـرها بأنه لا معبود إلا اللـه عز وجل. ﴿فَعَفَوْنَا عَن ذَلِكَ﴾ أي عما كان منهم من التعنت. ﴿وَآتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُّبِينًا﴾ أي: حجة بيّنة وهي الآيات التي جاء بها؛ وسميت سلطاناً لأن من جـاء بها قاهر بالحجة، وهي قاهرة للقلوب، بأن تعلم أنه ليس في قوى البشر أن يأتوا بمثلـها.

﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ﴾ أي بسبب نقـضهم الميثـاق الذي أخذ منهم، وهو العمل بما في التـوراة؛ وقد تقدّم رفع الجـبل ودخولهم الباب في «البـقرة». و ﴿سُجَّدًا﴾ نصب على الحال.

وقرأ ورش وحده « وقلنا لهم لا تَعَدُّوا في السبت»[1] بفتح العين من عَدَا يَعْدو عَدْواً وعُدْواناً وعُدُوّاً وعَدَاءً، أي: باقـتناص الحيتان كـما تقدّم في «البقـرة». والأصل فيه تعتدوا أدغـمت التاء في الدال؛ قال النحاس: ولا يجوز إسكان العين ولا يوصـل إلى الجمع بين ساكنين في هذا، والذي يقرأ بها إنما يروم الخطأ. ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾ يعني العهد الذي أخذ عليهم في التوراة. وقيل: عهد مؤكد باليمين فسمي غليظاً لذلك.

﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ۚ بَل طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ﴾ ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم﴾ خفض بالباء و «ما» زائدة مـؤكدة كقوله: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٩] وقد تقدّم؛ والباء متعلقة بمحذوف، التـقدير: فبنقضهم ميثاقهم لعناهم؛ عن قتادة وغـيره. وحذف هذا لعلم السامع. وقال أبو الحسن عليّ بن حـمزة الكسائيّ: هو متعلق بما قـبله؛ والمعنى فأخذتهم الصاعقـة بظلمهم إلى قوله: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ﴾ قال: ففسر ظلمهم الذي أخذتهم الصاعـقة من أجله بما بعده من نقضهم الميثاق وقتلهم الأنبـياء وسائر ما بيّن من الأشياء التي ظلموا فيها أنفسهم. وأنكر ذلك الـطبريّ وغيره؛ لأن الذين أخذتهم الصاعقة كانوا على عهد موسى، والذين قـتلوا الأنبياء ورموا مريم بالبهـتان كانوا بعد موسى بزمان، فلم تأخـذ الصاعقة الذين أخذتهم برميهم مـريم بالبهتان. قال المهدويّ وغيـره: وهذا لا يلزم؛ لأنه يجوز أن يخبر عنهم والمراد آباؤهم؛ على ما تقدّم في «البقرة». قال الزجاج: المعنى فبنقضـهم ميثاقهم حرّمنا عليهم طيبات أحلت لهم؛ لأن هذه القصة ممتدة إلى قوله: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا﴾ [النساء: ١٦٠]. ونقضهم الميثاق أنه أخذ عليهم أن يبـينوا صفة النبيّ ﷺ. وقيل: المعنى فبنقضهم ميثـاقهم وفعلهم كذا وفعلهم

(١) قراءة سبعية متواترة: تقريب النشر (ص ١٠٦).

كذا طبع الله على قلوبهم. وقيل: المعنى فبنقضهم لا يؤمنون إلا قليلاً؛ والفاء مقحمة. و ﴿كُفْرِهِم﴾ عطف، وكذا و ﴿وَقَتْلِهِمُ﴾ . والمراد ﴿بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ كتبهم التي حرّفوها. و ﴿غُلْفٌ﴾ جمع غلاف؛ أي: قلوبنا أوعية للعلم فلا حاجة بنا إلى علم سوى ما عندنا. وقيل: هو جمع أغلف وهو المغطى بالغلاف؛ أي: قلوبنا في أغطية فلا نفقه ما تقول؛ وهو كقوله: ﴿قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ﴾ [فصلت: ٥] وقد تقدّم هذا في «البقرة» وغرضهم بهذا درء حجة الرسل. والطبع الختم؛ وقد تقدّم في «البقرة». ﴿وَبِكُفْرِهِمْ﴾ أي: جزاء لهم على كفرهم؛ كما قال: ﴿وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [البقرة: ٨٨] أي: إلا إيماناً قليلاً أي: ببعض الأنبياء، وذلك غير نافع لهم. ثم كرر و﴿بِكُفْرِهِمْ﴾ ليخبر أنهم كفروا كفراً بعد كفر. وقيل: المعنى﴿ وَبِكُفْرِهِمْ﴾ بالمسيح؛ فحذف لدلالة ما بعده عليه، والعامل في ﴿وَبِكُفْرِهِمْ﴾ هو العامل في بـ﴿نَقْضِهِم﴾ لأنه معطوف عليه، ولا يجوز أن يكون العامل فيه ﴿طَبَعَ﴾. والبهتان العظيم رميها بيوسف النجار وكان من الصالحين منهم. والبهتان الكذب المفرط الذي يتعجب منه وقد تقدّم. والله سبحانه وتعالى أعلم.

﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ﴾ كسرت «إنّ» لأنها مبتدأة بعد القول وفتحها لغة. وقد تقدّم في «آل عمران» اشتقاق لفظ المسيح. ﴿رَسُولَ اللَّهِ﴾ بدل، وإن شئت على معنى أعني. ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ﴾ ردّ لقولهم. ﴿وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ أي: ألقى شبهه على غيره كما تقدّم في «آل عمران». وقيل: لم يكونوا يعرفون شخصه وقتلوا الذي قتلوه وهم شاكون فيه؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ﴾ . والإخبار قيل: إنه عن جميعهم. وقيل: إنه لم يختلف فيه إلا عوامّهم؛ ومعنى اختلافهم قول بعضهم إنه إله، وبعضهم هو ابن الله. قاله الحسن: وقيل اختلافهم أن عوامهم قالوا قتلنا عيسى. وقال من عاين رفعه إلى السماء: ما قتلناه. وقيل: اختلافهم أن النُّسْطُورِيّة من النصارى قالوا: صلب عيسى من جهة ناسُوته لا من جهة لاهُوته. وقالت المَلْكانية: وقع الصلب والقتل على المسيح بكماله ناسوته ولاهوته. وقيل: اختلافهم هو أنهم قالوا: إن كان هذا صاحبنا فأين عيسى ؟ وإن كان هذا عيسى فأين صاحبنا ؟ وقيل: اختلافهم هو أن اليهود قالوا: نحن قتلناه، لأن يهوذا رأس اليهود وهو الذي سعى في قتله. وقالت طائفة من النصارى: بل قتلناه نحن: وقالت طائفة منهم: بل رفعه الله إلى السماء ونحن ننظر إليه. ﴿مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ﴾ من زائدة؛ وتم الكلام. ثم قال جل وعز: ﴿إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ﴾ استثناء ليس من الأوّل في موضع نصب، ويجوز أن يكون في موضع رفع على البدل؛ أي: ما لهم به من علم إلا اتّباع الظن. وأنشد سيبويه:

وبلدة ليس بها أنيسُ إلاّ اليعافير وإلا العِيسُ

قوله تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ قال ابن عباس والسدي: المعنى ما قتلوا ظنهم يقيناً؛ كقولك:

قتلته علماً إذا علمته علما تاماً؛ فالهاء عائدة على الظنّ. قال أبو عبيد: ولو كان المعنى وما قتلوا عيسى يقيناً لقال: وما قتلوه فقط. وقيل: المعنى وما قتلوا الذي شبه لهم أنه عيسى يقيناً؛ فالوقف على هذا على ﴿ يقينا ﴾. وقيل؛ المعنى وما قتلوا عيسى، والوقف على ﴿وَمَا قَتَلُوهُ﴾ و ﴿يَقِينًا﴾ نعت لمصدر محذوف، وفيه تقديران: أحدهما أي: قالوا هذا قولاً يقيناً، أو قال الله هذا قولاً يقيناً. والقول الآخر أن يكون المعنى وما علموه علماً يقيناً. النحاس: إن قدرت المعنى بل رفعه الله إليه يقيناً فهو خطأ؛ لأنه لا يعمل ما بعد «بَلْ» فيما قبلها لضعفها. وأجاز ابن الأنباريّ الوقف على ﴿وَمَا قَتَلُوهُ﴾ على أن ينصب ﴿يَقِينًا﴾ بفعل مضمر هو جواب القسم، تقديره: ولقد صدّقتم يقيناً أي: صدقا يقيناً. ﴿بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ ابتداء كلام مستأنف؛ أي: إلى السماء، والله تعالى متعال عن المكان؛ وقد تقدّم كيفية رفعه في «آل عمران». ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا﴾ أي: قوياً بالنقمة من اليهود فسلط عليهم بطرس بن أستيسانوس الرّومي فقتل منهم مقتلة عظيمة. ﴿ حكيما ﴾ حكم عليهم باللعنة والغضب.

﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ﴾ قال ابن عباس والحسن ومجاهد وعكرمة: المعنى ليؤمنن بالمسيح ﴿ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ أي: الكتابي(١)؛ فالهاء الأولى عائدة على عيسى، والثانية على الكتابيّ؛ وذلك أنه ليس أحد من أهل الكتاب اليهود والنصارى إلا ويؤمن بعيسى عليه السلام إذا عاين الملك، ولكنه إيمان لا ينفع؛ لأنه إيمان عند اليأس وحين التلبس بحالة الموت؛ فاليهوديّ يقرّ في ذلك الوقت بأنه رسول الله، والنصرانيّ يقرّ بأنه كان رسول الله. وروى أن الحجاج سأل شهر بن حوشب عن هذه الآية فقال: إني لأوتي بالأسير من اليهود والنصارى فآمر بضرب عنقه، وأنظر إليه في ذلك الوقت فلا أرى منه الإيمان؛ فقال له شهر بن حوشب: إنه حين عاين أمر الآخرة يقرّ بأن عيسى عبد الله ورسوله فيؤمن به ولا ينفعه؛ فقال له الحجاج: من أين أخذت هذا ؟ قال: أخذته من محمد ابن الحنفية؛ فقال له الحجاج: أخذت من عين صافية(٢). وروى عن مجاهد أنه قال: ما من أحد من أهل الكتاب إلا يؤمن بعيسى قبل موته؛ فقيل له: إن غرق أو احترق أو أكله السبع يؤمن بعيسى؟ فقال: نعم وقيل: إن الهاءين جميعاً لعيسى عليه السلام؛ والمعنى ليؤمنن به من كان حياً حين نزوله يوم القيامة(٣)؛ قاله قتادة وابن زيد وغيرهما واختاره الطبريّ. وروى يزيد بن زُرَيْع عن رجل عن الحسن في قوله تعالى: ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ﴾ قال: قبل موت عيسى؛ واللَّه إنه لحيّ عند الله الآن؛ ولكن إذا نزل آمنوا به أجمعون(٤)؛ ونحوه عن الضحاك وسعيد بن جبير. وقيل: ﴿ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ ﴾ أي: بمحمد عليه السلام وإن لم يجرِ له ذكر؛ لأن هذه الأقاصيص

(١) حسن إلى ابن عباس : الطبري (٦/ ٢٠) في تفسيره .
(٢) لم أجده.
(٣) انظر: الطبري (٦/ ٢٥) في تفسيره.
(٤) ضعيف : لجهالة الحسن فيه ، ورواه الطبري (٦/ ٢٣) في تفسيره بنحوه .

أنزلت عليه والمقصود الإيمان به، والإيمان بعيسى يتضمن الإيمان بمحمد عليه الصلاة والسلام أيضاً؛ إذ لا يجوز أن يفـرّق بينهم. وقيل: ﴿ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ ﴾ أي: بالله تعالى قبل أن يمـوت ولا ينفعه الإيمان عند المعاينة. والتأويلان الأوّلان أظهر. وروى الزهريّ عن سـعيد بن المسيب عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «لينزِلن ابن مـريم حكما عدلاً فـليقتُلَنّ الدجـال وليقتُلَنّ الخنزير وليكسـرنّ الصليب وتكون السجدة واحدة لله رب العالمين»[1] ثم قال أبو هريرة: واقرؤوا إن شئتم ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ﴾ قال أبو هريرة: قبل موت عيسى؛ يعيدها ثلاث مرات.

وتقدير الآية عند سيبويه؛ وإن من أهل الكتاب أحد إلا ليؤمِنَـنَّ به. وتقدير الكوفيين: وإن من أهل الكتاب إلا من ليـؤمنَنّ به، وفيه قبح، لأن فـيه حذف الموصـول، والصلة بعض الموصول فكأنه حذف بعض الاسم.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً﴾ أي: بتكذيب من كذبه وتصديق من صدّقه.

﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾ ﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تـعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾ قال الزجـاج: هذا بدل من ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم ﴾. والطيبات ما نصّـه في قوله تعالى: ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ ﴾ [الأنعام: ١٤٦] وقدّم الظلم على التحريم إذ هو الغرض الذي قصد إلـى الإخبار عنه بأنه سبب التحريم. ﴿وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أي: وبصدّهم أنفسـهم وغيرهم عن اتباع مـحمد ﷺ. ﴿وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾ كله تفـسيـر للظـلم الذي تعـاطوه ، وكذلك ما قـبله من نقـضهم الميـثاق ومـا بعـده ؛ وقد مضى في «آل عمران» أن اختلاف العلماء في سبب التحريم على ثلاثة أقوال هذا أحدها.

الثانية: قال ابن العربي[2]: لا خلاف في مذهب مالك أن الكفار مـخاطبون، وقد بيّن الله في هذه الآيه أنهم قد نهوا عن الربا وأكل الأموال بالباطل؛ فإن كان ذلك خـبرا عما نزل على محمد في القرآن وأنهم دخلوا في الخطاب فبـها ونعمت، وإن كان خبراً عمـا أنزل الله على موسى في التوراة، وأنهم بدّلوا وحرفوا وعصوا وخالفوا فهل يجوز لنا مـعاملتهم والقوم قد أفسدوا أموالهم في دينهم أم لا ؟ فظنت طائفـة أنّ معاملتـهم لا تجوز؛ وذلك لما في أمـوالهم من هذا الفسـاد. والصحـيح جواز معـاملتهم مع رباهم واقتحـام ما حرّم الله سـبحانه عليهم؛ فـقد قام الدليل القـاطع على ذلك قرآنا وسنة؛ قال الله تعالى ﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ ﴾ [المائدة: ٥] وهذا نصٌّ؛ وقد عامل النبي ﷺ اليهود. ومات ودرعـه مرهونة عند يهودي في شعيـر أخذه لعياله[3]. والحاسم لداء الشك والخلاف

---

(١) متفق عليه : البخاري (٣٤٤٨) في الأنبياء ، مسلم (١٥٥) في الإيمان.

(٢) ابن العربي (١/ ٥١٤) في أحكام القرآن.

(٣) متفق عليه: البخاري (٢٠٦٨) في البيوع ، ومسلم (١٦٠٣) في المساقاة، عن عائشة رضي الله عنها.

اتفاق الأمّة على جواز التجارة مع أهل الحرب؛ وقد سافر النبي ﷺ إليهم تاجراً، وذلك من سفره أمر قاطع على جواز السفر إليهم والتجارة معهم. فإن قيل: كان ذلك قبل النبوّة؛ قلنا: إنه لم يتدنس قبل النبـوة بحـرام ثبت ذلك تواتراً ولا اعـتـذر عنه إذ بُعث، ولا منع منه إذْ نبِّئ، ولا قطعـه أحـد من الصحـابة في حياته، ولا أحد مـن المسلمين بعد وفاته؛ فقـد كانوا يسافـرون في فك الأسرى وذلك واجب، وفي الصلح كما أرسل عـثمان وغيره؛ وقـد يجب وقد يكون ندباً؛ فأمّا السفـر إليهم لمجرّد التجارة فمباح.

﴿لَّـٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أُوْلَـٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ﴾ استثنى مؤمني أهل الكتاب؛ وذلك أن اليهود أنكروا وقالوا: إن هذه الأشـياء كانت حـراما في الأصل وأنت تحلها ولم تكن حـرّمت بظلمنا: فنزل ﴿لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ والراسخ هو المبالغ في علم الكتاب الثابت فيـه، والرّسوخ الثبوت؛ وقد تقدّم في «آل عمران» والمراد عـبدالله بن سلام وكعب الأحـبار ونظراؤهما. ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: من المهاجرين والأنصـار، أصحـاب محـمد ﷺ. ﴿وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاَةَ﴾ وقرأ الحسن ومالك بـن دينار وجمـاعة: «والمقيمون» على العطف، وكذا هو في حرف عبـدالله، وأما حرف أبيّ فهو فيه ﴿وَالْمُقِيمِينَ﴾ كما في المصاحف. واخـتلف في نصبه على أقوال سـتة؛ أصحـها قول سـيبويه بأنه نصب على المدح؛ أي: وأعني المقيمين؛ قال سيبويه: هذا باب ما ينتصب على التعظيم ومن ذلك ﴿وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاَةَ﴾ وأنشد.

وكل قومٍ أطاعوا أمر سَيِّدِهم ... إلا نميرا أطاعت أمر غَاوِيها

ويروى (أمر مرشدهم).

الظّاعِنين ولما يُظْعِنُوا أحداً ... والقائِلُونَ لِمَنْ دارٌ نُخَلِّيها

وأنشد:

لا يَبْعدَنْ قومي الَّذين هُمُ ... سُمُّ العُـداة وآفَةُ الجُزْرِ

النّـازلين بكُـلِّ مُـعْتَرَك ... والطّيِّبُونَ مَعَـاقدَ الأُزْرِ

قال النحاس: وهذا أصحّ ما قيل في ﴿وَالْمُقِيمِينَ﴾ وقال الكسائي: ﴿وَالْمُقِيمِينَ﴾ معطوف على «ما» قال النحاس قـال الأخفش: وهذا بعيد؛ لأن المعنى يكون ويؤمنون بالمقيـمين. وحكى محمد بن جرير أنه قيل له: إن المقيمين ههنا الملائكة عليهم السلام؛ لدوامهم على الصلاة والتسبيح والاستغفار، واختـار هذا القول، وحكى أن النصب على المدح بعيـد؛ لأن المدح إنما يأتي بعـد تمام الخبر، وخـبر الراسخين في ﴿أُوْلَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ فلا ينتصب ﴿وَالْمُقِيمِينَ﴾ على المدح. قـال النحاس: ومذهب سيبويه في قوله: والمؤتون رفع بالابتداء. وقال غيره: هو مرفوع على إضمار مبتدأ؛ أي: هم المؤتون الزكـاة وقيل: ﴿وَالْمُقِيمِينَ﴾ عطف على الكاف التي في «قَـبلِكَ» أي: من قبلك ومـن قبل

المقيـمين. وقيل: ﴿ الْمُقِيمِينَ﴾ عطف على الكاف التي في «إِلَيْكَ» وقـيل: هو عطف على الهاء والميم أي: منهم ومن المقيمين؛ وهذه الأجوبة الثلاثة لا تجوز؛ لأن فيها عطف مظهر على مضمر مخفوض. والجـواب السادس مـا روى أن عائشـة رضي الله عنهـا سئلت عن هذه الآية وعن قـوله: ﴿إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ﴾ [طه: ٦٣] وقوله في «المائدة» : ﴿وَالصَّابِئُونَ﴾ [المائدة: ٦٩] فـقالت للسـائل: يا بن أخي الكُتّاب أخطؤوا[١]. وقال أبان بن عثمان: كـان الكاتب يُملَى عليه فيكتب فكتب ﴿ لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ ثم قال لـه: ما أكتب ؟ فـقيل له: اكـتب ﴿وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاةَ﴾ فمن ثَمّ وقع هذا[٢]. قال القُشيري: وهذا المسلك باطل؛ لأن الذين جمعوا الكتاب كانوا قدوة في اللغة، فلا يظنّ بهم أنهم يدرجون في القـرآن ما لم ينزل. وأصح هذه الأقوال قـول سيبويه وهو قـول الخليل، وقول الكسائي هو اختيار القَفّال والطبري، والله أعلم.

﴿ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَـٰرُونَ وَسُلَيْمَـٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ ﴾ . هذا متصل بقوله: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ ﴾ [النساء: ١٥٣] فأعلم تعالى أن أمـر محمد ﷺ كأمر من تقدّمـه من الأنبياء. وقال ابن عـباس فيمـا ذكره ابن إسحاق: نزلت في قـوم من اليهود منهم سُكَين وعـدي بن زيد قالوا للنبي ﷺ: ما أوحى الله إلى أحد من بعد موسى فكذبهم الله[٣]. والوحي إعلام في خفاء؛ يقال: وحى إليه بالكلام يَحِي وَحْياً وأوحى يُوحى إيحَاء. ﴿إِلَىٰ نُوحٍ﴾ قدّمه لأنه أوّل نبي شُرعت على لسانه الشرائع. وقيل غيـر هذا؛ ذكر الزبير بن بكار حدثني أبو الحسن علي بن المغيرة عن هشـام بن محمد ابن السائب عـن أبيه قال : أوّل نبي بعـثه الله تبـارك وتعالى في الأرض إدريس واسـمه أخنوخ؛ ثم انقطعت الرسل حتى بعث الله نوح بن لمك بن مُـتَوشْلَخ بن أخنوخ، وقد كان سـام بن نوح نبياً، ثم انقطعت الرسل حتى بعث الـله إبراهيم نبياً واتخذه خلـيلاً؛ وهو إبراهيم بن تَارَخ واسم تارخ آزَرَ ثم بعث إسماعيل بن إبراهيم فمات بمكة، ثم إسحـاق بن إبراهيم فمات بالشام، ثم لوط وإبراهيم عمه، ثم يعقوب وهو إسرائيل بن إسحاق ثم يوسف بن يعـقوب ثم شعيب بن يَوْبَب، ثم هود بن عبدالله، ثم صالح بن أسف، ثم موسى وهارون ابنا عمـران. ثم أيوب ثم الخضر وهو خضرون، ثم داود بن إيشا ثم سليمان بن داود، ثم يونس بن متى، ثم إلياس ثم ذا الكفل واسمه عويدنا من سبط يهوذا بن يعقوب؛ قال: وبين موسى بن عمران ومريم بنت عمـران أم عيسى ألف سنة وسبعمائة سنة وليسا من

(١، ٢) هذا باطل : ولا يصح وهو محمول على الآتي: « وأن العرب لا تحب توالي الأمثـال فهذا على سبيل الابتدار وقطع الملل ، والله أعلم، وكيف يتـعهد الله بحـفظ كتابه ثم يتركـه فما قالـه إلا زنديق والله أعلم وانظر الطبري (٦/ ٢٨) في تفسيره .

(٣) هذا ضعيف جـدًا: فيه محمد بن أبي مـحمد وفيه جـهالة، وفيه عنعنة ابن إسحـاق الراوي عنه، وفيه الشك من محمد عن سعيد بن جبير وقد سبق ، وانظر الطبري (٦/ ٣١) في تفسيره.

سبط؛ ثم محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب النبي ﷺ. قال الزبير: كل نبي ذكر في القرآن من ولد إبراهيم غير إدريس ونوح ولوط وهود وصالح. ولم يكن من العرب أنبياء إلا خمسة: هود وصالح وإسماعيل وشعيب ومحمد ﷺ وعليهم أجمعين؛ وإنما سموا عرباً لأنه لم يتكلم بالعربية غيرهم.

قوله تعالى: ﴿وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ هذا يتناول جميع الأنبياء ثم قال: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ فخص أقواماً بالذكر تشريفاً لهم، كقوله تعالى: ﴿وملائكته وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ﴾ [البقرة: ٩٨] ثم قال: ﴿وعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ﴾ قدّم عيسى على قوم كانوا قبله؛ لأن الواو لا تقتضي الترتيب، وأيضاً فيه تخصيص عيسى رداً على اليهود. وفي هذه الآية تنبيهٌ على قدر نبينا ﷺ وشرفه حيث قدّمه في الذكر على أنبيائه؛ ومثله قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ﴾ [الأحزاب: ٧] الآية؛ ونوح مشتق من النَّوْح؛ وقد تقدّم ذكره مَوْعَبا في «آل عمران» وانصرف وهو اسم أعجمي؛ لأنه على ثلاثة أحرف فخفّ؛ فأما إبراهيم وإسماعيل وإسحاق فأعجمية وهي معرفة ولذلك لم تنصرف، وكذا يعقوب وعيسى وموسى إلا أن عيسى وموسى يجوز أن تكون الألف فيهما للتأنيث فلا ينصرفان في معرفة ولا نكرة؛ فأما يُونس ويُوسف فروى عن الحسن أنه قرأ: «ويُونِس» بكسر النون وكذا «يُوسِف» يجعلهما من آنس وآسف، ويجب على هذا أن يُصرفا ويُهمزا ويكون جمعهما يآنس ويآسِفُ. ومن لم يهمز قال: يوانس ويواسف. وحكى أبو زيد: يونس ويوسف بفتح النون والسين؛ قال المهدوي: وكأن «يونس» في الأصل فعل مبني للفاعل، و«يونَس» فعل مبني للمفعول، فسمي بهما.

قوله تعالى: ﴿وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾ الزّبور كتاب داود وكان مائة وخمسين سورة ليس فيها حكم ولا حلال ولا حرام، وإنما هي حِكَم ومواعظ. والزَّبْر الكتابة، والزبور بمعنى المزبور أي: المكتوب، كالرَّسول والرَّكُوب والحَلوب. وقرأ حمزة «زُبُوراً» بضم الزاي جمع زَبْر كفَلس وفُلُوس، وزَبْر بمعنى المزبور؛ كما يقال: هذا الدرهم ضَرْب الأمير أي: مَضروبه؛ والأصل في الكلمة التوثيق؛ يقال: بئر مزبورة أي: مطوية بالحجارة، والكتاب يسمى زبوراً لقوّة الوثيقة به. وكان داود عليه السلام حسن الصوت؛ فإذا أخذ في قراءة الزبور اجتمع إليه الإنس والجنّ والطير والوحش لحسن صوته. وكان متواضعاً يأكل من عمل يده؛ روى أبو بكر بن أبي شيبة حدّثنا أبو أسامة عن هشام بن عُروة عن أبيه قال: أن كان داود ﷺ ليخطب الناس وفي يده القفّة من الخوص، فإذا فرغ ناولها بعض مَن إلى جنبه يبيعها، وكان يصنع الدُّرُوع، وستأتي في الحديث: «الزرقة في العين يُمْن»[1] وكان داود أزرق.

﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ من قَبْلُ﴾ يعني بمكة. ﴿وَرُسُلاً﴾ منصوب بإضمار فعل، أي: وأرسلنا رسلا؛ لأن معنى «وَأَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ» وأرسلنا نوحاً. وقيل: هو منصوب بفعل دَلّ عليه ﴿قَصَصْنَاهُمْ﴾ أي: وقصصنا رسلا؛ ومثله ما أنشد سيبويه:

---

(١) موضوع: ضعيف الجامع (٣١٩٠) للألباني عن أبي هريرة رضي الله عنه.

أصبحتُ لا أحملُ السِّلاحَ ولا أمْلـــكُ رأسَ البعيرِ إنْ نَفَرا
والذِّئبَ أخشاه إن مـــررتُ به وَحْدي وأخشى الرِّيَاحَ والمطرا

أي: وأخشى الذئب. وفي حرف أُبيّ «وَرُسُلٌ» بالرفع على تقدير ومنهم رسل. ثم قيل: إن الله تعالى لما قصّ في كتابه بعض أسماء أنبيائه، ولم يذكر أسماء بعض، ولئن ذكر فضل على من لم يذكر قالت اليهود؛ ذكر محمد الأنبياء ولم يذكر موسى؛ فنزلت ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ ﴿ تَكْلِيمًا ﴾ مصدر معناه التأكيد؛ يدل على بطلان من يقول: خلق لنفسه كلاما في شجرة فسمعه موسى، بل هو الكلام الحقيقي الذي يكون به المتكلم متكلماً.

قال النحاس: وأجمع النحويون على أنك إذا أكدت الفعل بالمصدر لم يكن مجازا، وأنه لا يجوز في قول الشاعر:

امْتَلأَ الحَوْضُ وقال قَطْني

أن يقول: قال قولا؛ فكذا لما قال: ﴿ تَكْلِيمًا ﴾ وجب أن يكون كلاماً على الحقيقة من الكلام الذي يُعقل. وقال وهب بن منبه: إن موسى عليه السلام قال: «يارب بِمَ اتخذتني كليماً» ؟ طلب العمل الذي أسعده الله به ليُكثر منه؛ فقال الله تعالى له: أتذكر إذ نَدّ من غنمك جَدْيٌ فاتبعته أكثر النهار وأتعبك، ثم أخذته وقبلته وضممته إلى صدرك وقلت له؛ أتعبتني وأتعبت نفسك، ولم تغضب عليه؛ من أجل ذلك اتخذتك كليماً (١).

﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ هو نصب على البدل من ﴿وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ﴾ ويجوز أن يكون على إضمار فعل؛ ويجوز نصبه على الحال؛ أي: كما أوحينا إلى نوح والنبيِّين من بعده رسلاً. ﴿لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ فيقولوا ما أرسلت إلينا رسولاً. وما أنزلت علينا كتاباً؛ وفي التنزيل ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ [الإسراء: ١٥] وقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ﴾ [طه: ١٣٤] وفي هذا كله دليل واضح أنه لا يجب شيء من ناحية العقل. وروي عن كعب الأحبار أنه قال: كان الأنبياء ألفي ألف ومائتي ألف . وقال مقاتل: كان الأنبياء ألف ألف وأربعمائة ألف وأربعة وعشرين ألفاً.

وروى أنَس بن مالك عن رسول الله ﷺ أنه قال : « بعثتُ على أثر ثمانية آلاف من الأنبياء منهم أربعة آلاف من بني إسرائيل » (٢) ذكره أبو الليث السمرقندي في التفسير له؛ ثم أسند عن شعبة عن أبي إسحاق عن الحارث الأعور عن أبي ذرّ الغفاري قال: قلت يا رسول الله كم كانت الأنبياء وكم كان المرسلون ؟ قال: «كانت الأنبياء مائة ألف نبيّ وأربعة وعشرين ألف نبي وكان

(١) الخبر من الإسرائيليات ولا أراه يصح.
(٢ ، ٣) ضعيف جدًا : أبو يعلى (٤١٣٢) في مسنده ، وفيه يزيد الرقاشي ، وإبراهيم بن المهاجر وهما ضعيفان كما قال الذهبي رحمه الله تعقيبًا على تصحيح الحاكم له (٢/ ٥٩٧) في المستدرك.

المرسلون ثلاثمائة وثلاثة عشر»[١].

قلت: هذا أصح ما روي في ذلك؛ خرجه الآجُرِّي وأبو حاتم البستي في المسند الصحيح له.

﴿ لَّـٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ ﴾ رفع بالابتداء، وإن شئت شـدّدت النون ونصبت. وفي الكلام حذف دل عليه الكلام؛ كأنّ الكفار قـالوا: ما نشهد لك يا محمد فيمـا تقول فمن يشهد لك ؟ فنزل ﴿لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ ﴾. ومعنى ﴿أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾ أي: وهو يعلم أنك أهل لإنزاله عليك؛ ودلت الآية على أنه تعالى عالم بعلم. ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ ﴾ ذكر شهادة الملائكة ليقـابل بها نفي شهادتهم. ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾ أي: كفى الله شاهداً، والباء زائدة.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّوا۟ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ يعني اليهود أي: ظلموا. ﴿وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أي: عن اتباع الرسول محمد ﷺ بقـولهم: ما نجـد صفتـه في كتابنا، وإنما النُّبوّة في ولد هارون وداود، وإن في التوراة أنّ شـرع موسى لا يُنسخ. ﴿قَدْ ضَلُّوا ضَلَالاً بَعِيدًا ﴾ لأنهم كفـروا ومع ذلك منعوا الناس من الإسلام.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَظَلَمُوا۟ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا ﴾ يعني اليهود؛ أي: ظلموا محمداً بكتمان نعته وأنفسَهم إذ كفروا، والناسَ إذ كتموهم. ﴿لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ ﴾ هذا فيمن يموت على كفره ولم يتب.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ﴾ هذا خطاب للكل. ﴿قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ ﴾ يريد محمداً عليه الصلاة والسلام. ﴿بِالْحَقِّ ﴾ بالقرآن. وقـيل: بالدّين الحق؛ وقيل: بشهادة أن لا إلـه إلاّ اللـه؛ وقـيل: الباء للتعدية؛ أي: جاءكم ومعه الحق؛ فهو في موضع الحال.

قولـه تعالى: ﴿فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ ﴾ في الكلام إضمار؛ أي: وأتوا خيراً لكم؛ هذا مذهب سيبويه، وعلى قول الفراء نعـت لمصدر محذوف ؛ أي : إيماناً خيـراً لكم ، وعلى قول أبي عبيـدة يكن خيراً لكم.

---

(١) ضعيف جدًا: وقد سبق .

﴿ يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ١٧١ ﴾

قوله تعالى: ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ ﴾ نهي عن الغلوّ. والغلوّ التجاوز في الحدّ؛ ومنه غلا السعر يغلو غلاء؛ وغلا الرجل في الأمر غلوّاً، وغلا بالجارية لحمُها وعظمُها إذا أسرعت الشباب فجاوزت لِداتِها؛ ويعنى بذلك فيما ذكره المفسرون غلوّ اليهود في عيسى حتى قذفوا مريم، وغلوّ النصارى فيه حتى جعلوه ربّاً؛ فالإفراط والتقصير كله سيئةٌ وكفرٌ؛ ولذلك قال مطرِّف بن عبد الله: الحسنة بين سيِّئتين؛ وقال الشاعر:

وأوف ولا تسـوفِ حقّك كـلَّه ... وصافح فلم يستوف قَطُّ كريمُ
ولاَ تَغْلُ في شيءٍ من الأمر واقتصدْ ... كِلاَ طرَفَيْ قصدِ الأُمورِ ذَميمُ

وقال آخر:

عليك بأوساطِ الأمور فإنها ... نَجاةٌ ولا تركَبْ ذَلولاً ولا صَعْبَا

وفي صحيح البخاريّ عنه عليه السلام: «لا تُطروني كما أطْرَتِ النصارى عيسى وقولوا عبدُ الله ورسولُه»(١).

قوله تعالى: ﴿وَلا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ ﴾ أي: لا تقولوا إن له شريكاً أو ابنا. ثم بيّن تعالى حال عيسى عليه السلام وصفته فقال: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ ﴾.

وفيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ﴾ المسيح رفع بالابتداء؛ و ﴿ عِيسَى﴾ بدل منه وكذا ﴿ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ ويجوز أن يكون خبر الابتداء ويكون المعنى: إنما المسيحُ ابنُ مريم. ودلّ بقوله: ﴿عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ﴾ على أن من كان منسوباً بوالدته كيف يكون إلهاً، وحق الإله أن يكون قديماً لا مُحدَثا. ويكون ﴿رَسُولُ اللَّهِ ﴾ خبراً بعد خبر.

الثانية: لم يذكر الله عز وجل امرأة وسمّاها باسمها في كتابه إلا مريم ابنة عمران؛ فإنه ذكر اسمها في نحوٍ من ثلاثين موضعاً لحكمة ذكرها بعض الأشياخ؛ فإن الملوك والأشراف لا يذكرون حرائرهم في الملأ، ولا يبتذلون أسماءهنّ؛ بل يكنون عن الزوجة بالعرس والأهل والعيال ونحو ذلك؛ فإن ذكروا الإماء لم يكنوا عنهنّ ولم يصونوا أسماءهنّ عن الذكر والتصريح بها؛ فلما قالت النصارى في مريم ما قالت، وفي ابنها صرح الله باسمها، ولم يكن عنها بالأُموّة والعبودية التي هي صفة لها؛ وأجرى الكلام على عادة العرب في ذكر إمائها.

---

(١) **صحيح**: سبق روايته عند البخاري عن عمر رضي الله عنه.

الثالثة: اعتقاد أن عيسى عليه السلام لا أب له واجب، فإذا تكرر اسمه منسوباً لـلأُم استشعرت القلوب ما يجب عليها اعتقاده من نفي الأب عنه، وتنزيه الأُم الطاهرة عن مقالة اليهود لعنهم الله. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾ أي: هو مكوّن بكلمة «كن» فكان بشراً من غير أب، والعرب تسمي الشيء باسم الشيء إذا كان صادراً عنه. وقيل: ﴿كَلِمَتُهُ﴾ بشارة الله تعالى مريم عليها السلام، ورسالته إليها على لسان جبريل عليه السلام؛ وذلك قوله: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ﴾ [آل عمران: ٤٥]. وقيل: «الكلمة» ههنا بمعنى الآية؛ قال الله تعالى: ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا﴾ [التحريم: ١٢] و ﴿مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾ [لقمان: ٢٧]. وكان لعيسى أربعة أسماء؛ المسيح وعيسى وكلمةٌ وروحٌ، وقيل غير هذا مما ليس في القرآن. ومعنى ﴿أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾ أمر بها مريم.

قوله تعالى: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ هذا الذي أوقع النصارى في الإضلال؛ فقالوا: عيسى جزء منه فجهلوا وضلوا؛ وعنه أجوبة ثمانية؛ الأوّل قال أُبيّ بن كعب: خلق الله أرواح بني آدم لما أخذ عليهم الميثاق؛ ثم ردّها إلى صلب آدمَ وأمسك عنده روح عيسى عليه السلام؛ فلما أراد خلقه أرسل ذلك الرّوح إلى مريم، فكان منه عيسى عليه السلام(١)؛ فلهذا قال: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾. وقيل: هذه الإضافة للتفضيل وإن كان جميع الأرواح من خلقه؛ وهذا كقوله: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ﴾ [الحج: ٢٦] وقيل: قد يسمى من تظهر منه الأشياء العجيبة روحاً، وتضاف إلى الله تعالى فيقال: هذا روح من الله أي: من خلقه؛ كما يقال في النعمة إنها من الله. وكان عيسى يبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى فاستحق هذا الاسم. وقيل: يسمى روحاً بسبب نفخة جبريل عليه السلام، ويسمى النفخ روحاً؛ لأنه ريح يخرج من الروح قال الشاعر هو ذو الرمة:

فقلتُ له ارْفَعْها إليكَ وأحْيِها　　　بِرُوحِكَ واقْتَتْه لها قِيتَةً قَدْرا

وقد وَرَد أن جبريل نفخ في دِرْع مريم فحملَتْ منه بإذن الله؛ وعلى هذا يكون ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ معطوفاً على المضمر الذي هو اسم الله في ﴿أَلْقَاهَا﴾ التقدير: ألقى الله وجبريل الكلمة إلى مريم. وقيل: ﴿رُوحٌ مِّنْهُ﴾ أي: من خلقه؛ كما قال: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣] أي: من خلقه. وقيل: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ أي: رحمة منه؛ فكان عيسى رحمة من الله لمن اتبعه؛ ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢] أي: برحمة، وقرئ ﴿فَرُوحٌ وَرَيْحَانٌ﴾ [الواقعة: ٨٩]. وقيل: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ وبرهان منه؛ وكان عيسى برهاناً وحجة على قومه ﷺ.

قوله تعالى: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ أي: آمنوا بأن الله إله واحد خالق المسيح ومرسله، وآمنوا برسله ومنهم عيسى فلا تجعلوه إلهاً. ﴿وَلَا تَقُولُوا﴾ آلهتنا ﴿ثَلَاثَةٌ﴾ عن الزجاج. قال ابن عباس: يريد بالتثليث الله تعالى وصاحبته وابنه. وقال الفرّاء وأبو عبيد: أي: لا تقولوا هم ثلاثة؛ كقوله تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ﴾ [الكهف: ٢٢]. قال أبو عليّ: التقدير ولا تقولوا هو ثالث ثلاثة؛ فحذف المبتدأ والمضاف. والنصارى مع فِرقهم مجمعون على التثليث ويقولون: إن الله جوهر واحد وله ثلاثة

---

(١) **حسن موقوف**: أحمد (٥/ ١٣٥) في المسند، والحاكم (٢/ ٣٥٣) في المستدرك والطبري (٦/ ٣٩).

قلت: وفيه أبو جعفر الرازي وهو صدوق سيئ الحفظ.

أقانيمَ؛ فيـجعلون كل أُقنُوم إلهاً ويعنون بالأقـانيم الوجود والحياة والعلم، وربما يعـبّرون عن الأقانيم بالأب والابن ورُوح القُدُس؛ فيعنون بالأب الوجود، وبالـروح الحياة، وبالابن المسيح، في كلام لهم فيه تخبط بيانه فـي أُصول الدين. ومحصول كلامهم يؤول إلى التمسك بأن عـيسى إله بما كان يجريه الله سبـحانه وتعالى على يديـه من خوارق العادات على حـسب دواعيه وإرادته؛ وقـالوا: قد علمنا خروج هذه الأُمور عن مقدور البشر، فينبغي أن يكون المقتَـدر عليها موصوفاً بالإلهية؛ فيقال لهم: لو كان ذلك من مقدوراته وكان مستقلاً بـه كان تخليص نفسه من أعدائه ودفع شرهم عنه من مقدوراته، وليس كذلك؛ فإن اعترفت النصارى بذلك فقد سقط قـولهم ودعواهم أنه كان يفعلها مستقلاً به؛ وإن لم يسلموا ذلك فلا حجة لهم أيضاً؛ لأنهم معـارضون بموسى عليه السلام، وما كان يجري على يديه من الأُمور العظام، مثل قلبِ العصـا ثعباناً، وفلْقِ البحر واليدِ البَيْـضاء والمنّ والسلوى، وغير ذلك؛ وكذلك مـا جرى على يد الأنبيـاء؛ فإن أنكروا ذلك فننكر مـا يدّعونه هم أيضـاً من ظهوره على يد عيسى عليه السـلام، فلا يمكنهم إثبات شيء من ذلك لعيسى؛ فإن طريق إثبـاته عندنا نصوص القرآن وهم ينكرون القرآن، ويكذبون من أتى به، فلا يمكنهم إثبات ذلك بأخبار التواتر.

وقد قيل: إن النصارى كانوا على دين الإسلام إحـدى وثمانين سنة بعد ما رُفع عيسى، يصلون إلى القِبلة؛ ويصومون شهر رمضان، حتى وقع فـيما بينهم وبين اليهود حرب، وكان في اليهود رجل شجاع يقـال له بولس، قتل جمـاعة من أصحاب عـيسى فقال: إن كان الحـق مع عيسى فقـد كفرنا وجحدنا وإلى النار مصيرنا، ونحن مغـبونون إن دخلوا الجنة ودخلنا النار؛ وإني أحتال فيهم فأضلهم فيـدخلون النار؛ وكان له فـرس يقال لهـا العقاب، فـأظهر الندامـة ووضع على رأسه التـراب وقال للنصـارى: أنا بولس عدوّكم قد نوديـت من السماء أن ليـست لك توبة إلا أن تتنصر، فـأدخلوه في الكنيسة بيتاً فأقام فيه سنة لا يخرج ليلاً ولا نهاراً حتى تعلم الإنجيل؛ فخرج وقال: نوديت من السماء أن الله قد قبِل توبتك فصدّقوه وأحبّوه، ثـم مضى إلى بيت المقدس واستخلف عليهم نُسْطُورَا وأعلمه أن عيسى ابن مريم إله، ثم توجه إلى الرّوم وعلمـهم اللاهوت والناسوت وقال: لم يكن عيسى بإنس فتأنّس ولا بجـسم فتجسّم ولكنه ابن الله. وعلم رجـلاً يقال له يعقوب ذلك؛ ثم دعـا رجلاً يقال له الملك فقال له؛ إن الإله لم يزل ولا يزال عـيسى؛ فلما استمكن منهم دعا هؤلاء الـثلاثة واحداً واحداً وقال له: أنت خـالصتي ولقد رأيت المسـيح في النوم ورضي عني، وقال لكل واحـد منهم: إني غداً أذبح نفسي وأتقرّب بها، فادع الناس إلى نِحلتك، ثم دخل المذبح فذبح نفسه؛ فلما كان يوم ثالثه دعا كل واحد منهـم الناس إلى نِحلته، فتـبع كل واحد منهم طائفـة، فاقـتتلوا واختلفـوا إلى يومنا هذا، فجميع النصارى من الفرق الثلاث؛ فهذا كـان سبب شركهم فيما يقال؛ والله أعلم. وقد رويت هذه القصة في معنى قوله تعالى. ﴿فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [المائدة: ١٤] وسيأتي إن شاء الله تعالى.

قولـه تعالى: ﴿انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ﴾ ﴿خَيْرًا﴾ منصوب عند سيبويه بإضـمار فعل؛ كأنه قال: ائتوا خيراً لكم، لأنه إذا نهاهم عن الشـرك فقد أمرهم بإتيان ما هو خير لـهم؛ قال سـيبويه: ومما ينتصب على إضمـار الفعل المتـروك إظهاره ﴿انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ﴾ لأنك إذا قلت: ائته فـأنت تخرجـه من أمر

وتدخله في آخر؛ وأنشد:

فواعديه سَرْحَتَيْ مالكٍ … أوِ الرُّبا بينهما أسْهَلاَ

ومذهب أبي عبيدة: انتهوا يكن خيراً لكم؛ قال محمد بن يزيد: هذا خطأ؛ لأنه يضمر الشرط وجوابه، وهذا لا يوجد في كلام العرب. ومذهب الفرّاء أنه نعت لمصدر محذوف؛ قال عليّ بن سليمان: هذا خطأ فاحش؛ لأنه يكون المعنى: انتهوا الانتهاء الذي هو خير لكم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ هذا ابتداء وخبر؛ و ﴿وَاحِدٌ﴾ نعت له. ويجوز أن يكون ﴿إِلَهٌ﴾ بدلاً من اسم اللَّه عز وجل و ﴿وَاحِدٌ﴾ خبره؛ التقدير إنما المعبود واحد. ﴿سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ﴾ أي: تنزيهاً عن أن يكون له ولد؛ فلما سقط «عن» كان «أن» في محل النصب بنزع الخافض؛ أي: كيف يكون له ولد ؟ وولد الرجل مُشْبِه له، ولا شبيه لله عز وجل. ﴿لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ فلا شريك له، وعيسى ومريم من جملة ما في السَّموات وما في الأرض، وما فيهما مخلوق، فكيف يكون عيسى إلهاً وهو مخلوق وإن جاز ولد فليجزْ أولاد حتى يكون كل من ظهرت عليه معجزة ولد إله. ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً﴾ أي: لأوليائه؛ وقد تقدّم.

﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لَن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ﴾ أي: لن يأنفَ ولن يحتشم. ﴿أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ﴾ أي: من أن يكون؛ فهو في موضع نصب. وقرأ الحسن: «إن يكون» بكسر الهمزة على أنها نفي هو بمعنى «ما» والمعنى ما يكون له ولد؛ وينبغي رفع يكون ولم يذكره الرّواة. ﴿وَلاَ الْمَلاَئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ أي: من رحمة الله ورضاه؛ فدل بهذا على أن الملائكة أفضل من الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين، وكذا ﴿وَلاَ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾ [هود: ٣١] وقد تقدمت الإشارة إلى هذا المعنى في «البقرة». ﴿وَمَن يَسْتَنكِفْ﴾ أي: يأنف ﴿عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ﴾ فلا يفعلها. ﴿فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ﴾ أي: إلى المحشر. ﴿جَمِيعًا﴾ فيجازي كلا بما يستحق، كما بينه في الآية بعد هذا ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ﴾ إلى قوله: ﴿نَصِيرًا﴾. وأصل ﴿يَسْتَنكِفْ﴾ نكفَ؛ فالياء والسين والتاء زوائد؛ يقال: نكفت من الشيء واستَنْكفت منه وأنكفته أي: نزّهته عما يستنكف منه؛ ومنه الحديث سئل عن «سبحان الله» فقال: «إنْكافُ اللَّه من كل سوء» (١) يعني تنزيهه وتقديسه عن الأنداد والأولاد. وقال الزجاج: استنكف أي: أنف مأخوذ من نكَفْت الدّمع إذا نَحّيته بإصبعك عن خدّك؛ ومنه الحديث: «ما يُنْكَفُ العَرَقُ عن جبينه» (٢) أي: ما ينقطع؛ ومنه الحديث: «جاء بجيش لا يُنْكَف آخره» (٣) أي: لا ينقطع آخره. وقيل: هو من النَّكَفِ وهو العيب؛ يقال: ما عليه في هذا الأمر نَكَفٌ ولا وَكَف أي: عيب:

(١-٣) ابن الأثير (٥/ ١١٦) في النهاية بلا سند.

أي: لن يمتنع المسيح ولن يتنزّه من العبودية ولن ينقطع عنها ولن يعيبها.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَـٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ يعني محمداً ﷺ؛ عن الثوري؛ وسماه برهاناً لأن معه البرهان وهو المعجزة. وقال مجاهد: البرهان ههنا الحجة؛ والمعنى متقارب؛ فإن المعجزات حجّته ﷺ. والنور المنزل هو القرآن[1]؛ عن الحسن؛ وسماه نوراً لأن به تتبين الأحكام ويهتدى به من الضلالة، فهو نور مبين، أي: واضح بيّن.

﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ﴾ أي: بالقرآن عن معاصيه، وإذا اعتصموا بكتابه فقد اعتصموا به وبنبيه. وقيل: ﴿وَاعْتَصَمُوا بِهِ﴾ أي: بالله. والعصمة الامتناع، وقد تقدّم. ﴿وَيَهْدِيهِمْ﴾ أي: وهو يهديهم؛ فأضمر هو ليدل على أن الكلام مقطوع مما قبله. ﴿إِلَيْهِ﴾ أي: إلى ثوابه. وقيل: إلى الحق ليعرفوه. ﴿صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ أي: دينا مستقيماً. و ﴿صِرَاطًا﴾ منصوب بإضمار فعل دل عليه ﴿وَيَهْدِيهِمْ﴾ التقدير؛ ويعرّفهم صراطاً مستقيماً. وقيل: هو مفعول ثان على تقدير؛ ويهديهم إلى ثوابه صراطاً مستقيماً. وقيل: هو حال. والهاء في ﴿إِلَيْهِ﴾ قيل: هي للقرآن، وقيل: للفضل، وقيل: للفضل والرحمة؛ لأنهما بمعنى الثواب. وقيل: هي لله عز وجل على حذف المضاف كما تقدّم من أن المعنى ويهديهم إلى ثوابه. أبو عليّ: الهاء راجعة إلى ما تقدّم من اسم الله عز وجل، والمعنى ويهديهم إلى صراطه؛ فإذا جعلنا ﴿صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ نصباً على الحال كانت الحال من هذا المحذوف. وفي قوله: ﴿وَفَضْلٍ﴾ دليل على أنه تعالى يتفضل على عباده بثوابه؛ إذ لو كان في مقابلة العمل لما كان فضلاً. والله أعلم.

﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَـٰلَةِ ۚ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿١٧٦﴾ ﴾

فيه ست مسائل:

الأولى: قال البراء بن عازب: هذه آخر آية نزلت من القرآن[2]؛ كذا في كتاب مسلم. وقيل: نزلت والنبيّ ﷺ متجهز لحجة الوداع، ونزلت بسبب جابر؛ قال جابر بن عبد الله: مرضت فأتاني رسول الله ﷺ وأبو بكر يعودانني ماشيين، فأغمي عليّ؛ فتوضأ رسول الله ﷺ ثم صب عليّ من

(١) صحيح إلى قتادة: الطبري (٦/ ٤٢) في تفسيره.

(٢) صحيح: وقد سبق.

وضوئه فـأفقت، فقـلت: يا رسول الله كيف أقـضي في مالي ؟ فلم يردّ عليّ شـيئاً حـتى نزلت آية الميراث ﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلالَةِ﴾ رواه مسلم؛ وقال: آخر آية نزلت ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ﴾ [البقرة: ٢٨١] وقد تقدّم. ومـضى في أوّل السورة الكلام في ﴿الْكَلالَةِ﴾ مستوفى (١)، وأن المراد بالإخوة هنا الإخوة للأب والأم أو للأب وكان لجابر تسع أخوات.

الثانية :قوله تـعالى: ﴿ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ ﴾ أي: ليس له ولد ولا والد؛ فـاكتفـى بذكر أحـدهما؛ قـال الجـرجاني: لفظ الـولد ينطلق على الوالد والمولود؛ فـالوالد يسـمى والدا لأنه وَلَد، والمولود يسـمى وَلَدا لأنه وُلِد؛ كـالذرية فـإنها من ذَرَا ثم تـطلق على المولود وعلى الوالد؛ قـال الله تعالى: ﴿ وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴾ [يس: ٤١].

الثالثة : والجمهور من العلماء من الصحابة والتابعين يجعلون الأخوات عصبة البنات وإن لم يكن معهـنّ أخ، غير ابن عبـاس؛ فإنه كان لا يجعل الأخـوات عصبة البنات؛ وإليـه ذهب داود وطائفة؛ وحجـتهم ظاهر قول الـلـه تعالى: ﴿ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ﴾ ولم يورّث الأُخت إلا إذا لم يكن للمـيت ولد؛ قالوا: ومعلوم أن الابنة من الولـد، فوجب ألاّ ترث الأُخت مع وجودها. وكان ابن الزبير يقول بقول ابن عباس في هذه المسألة حتى أخبره الأسود بن يزيد: أن معاذاً قضى في بنت وأُخت فجعل المال بينهما نصفين.

الرابعة : هذه الآية تسمى بآية الصيف ؛ لأنها نزلت في زمن الصـيف ؛ قال عمر : إني والله لا أدع شيـئاً أهَمّ إلى من أمر الكَلالة، وقـد سألت رسول اللـه ﷺ عنها فمـا أغلظ لي في شيء ما أغلظ لي فيها، حـتى طعن بإصبعه في جنبي أو في صدري ثم قال: «يا عـمر ألا تكفيك آية الصيف التي أنزلت في آخر سـورة النساء»(٢). وعنه رضي اللـه عنه قـال: ثلاث لأن يكون رسول اللـه ﷺ بيَّنهن أحب إليّ من الدّنيا وما فيها: الكلالة والرّبا والخلافة؛ خرّجه ابن ماجه في سننه(٣).

الخامسة: طعن بعض الرافضة بقول عمر: «والله لا أدع» الحديثَ.

السادسة :قولـه تـعالى: ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا ﴾ قال الكـسائي: المعنى يبين الله لكُم لـئلا تَضِلوا. قال أبو عـبيد؛ فحدّثت الكسـائيّ بحديث رواه ابن عمر عن النبـيّ ﷺ أنه قال: «لا يدعونّ أحدكم على ولده أن يوافق من اللـه إجابة»(٤) فاستحسنه. قال النحـاس: والمعنى عند أبي عبيد لئلا يوافق من اللـه إجابة، وهذا القـول عند البصريين خطأ صراح؛ لأنهم لا يجيـزون إضمار لا؛ والمعنى عندهم: يبيّن الله لـكم كراهة أن تضلوا. ثم حذف؛ كمـا قال: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢] وكذا معنى حديث النبيّ ﷺ؛ أي: كـراهية أن يوافق من اللـه إجابة. ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ تقدّم في غير موضع. واللـه أعلم.

تمت سورة «النساء» والحمد الله الذي وفق .

---

(١) **صحيح** : وقد سبق .

(٢) **صحيح** : مسلم (١٦١٧) في الفرائض.

(٣) **ضعيف** : ابن ماجه (٢٧٢٧) في الفرائض ، وضعفه الألباني هناك.

(٤) **صحيـح** : مسلم (٣٠٠٩) في الزهد عن جابر رضي الله عنه بلفظ : «لا تدعـوا على أنفسكم ولا على أولادكم ولا تدعوا على أموالكم . . .».